وئام بلعوم*

كتاب جديد عن جورج حبش يصدر في إسرائيل

مراجعة كتاب: «جورج حبش- سيرة سياسية»
المؤلف- إيلي جاليا
دار النشر- رسلينغ- تل أبيب
سنة النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٤٤٦

كيف اعتنق جورج حبش القومية العربية؟ ولماذا انتقل للماركسيّة اللينينية؟ ولماذا قبل فكرة الدولتين في المؤتمر الوطني الفلسطيني عام ١٩٨٨؟

يتابع هذا الكتاب السيرة السياسيّة للقائد الفلسطيني الدكتور جورج حبش، مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. المؤلف هو باحث إسرائيلي متخصص في تاريخ الشرق الأوسط، ويبحث الآن في ما يجري في سورية. يتأسّس الكتاب على أطروحة جاليا لنيل لقب الدكتوراه في جامعة حيفا، وهو يستعرض الأحداث السياسية الأهم في تاريخ جورج حبش، من خلال البحث في عدد كبير من الصحف والمقابلات والمواد المختلفة.

ويخوض الكتاب، المكوّن من ٤٤٦ صفحة مقسّمة إلى ١٠ أجزاء، بتوسّع حول ما يعتبره أهم ثلاث محطات فكرية لحبش: اعتناقه لفكرة القومية العربية وتأسيس حركة القوميين العرب، اعتناقه الماركسية-اللينينية وتأسيسه للجبهة الشعبية، وتسلل البراغماتية السياسية إلى نظرته للصراع مع إسرائيل منذ أواخر الثمانينات.

في الجزء الأول، وعنوانه «١٩٢٥ - ١٩٥١: بداية الطريق»، يستعرض الكاتب المحطّات الأولى في حياة حبش، مشيراً إلى أهميّة هذه الفترة في تكوينه النفسي والسياسي، بداية من مرحلة

* (محامٍ وناشط سياسي)

الشباب المُبكّر في اللد، التي شهدت حراكاً ضد الانتداب البريطاني (يذكُر منها أول مظاهرة شاهدها حبش وكانت في سن الـ١١ أثناء ثورة الـ٣٦.)، وما تخلله ذلك من تعبئة وطنية تلقاها في المدرسة من قبل طاقم التدريس، وعلى رأسهم مدير مدرسة أشاد به حبش كثيراً هو المربي توفيق أبو السعود.

في أوائل فترة النكبة، يصف حكيم الثورة بأنّه تمزّق من الداخل بين إحساسه بضرورة بقائه في الجامعة الأمريكية في بيروت من أجل التخطيط لتغيير الواقع، وبين ضرورة تواجده في فلسطين للمساهمة العسكرية مع الثوار وإلى جانب عائلته في اللد، وهو ما قام به بالفعل في حزيران ١٩٤٨. ويشير الكاتب إلى أثر النكبة والتهجير على جورج حبش، وبالتحديد حادثة وفاة اخته الكبيرة أثناء عملية تهجير اللد، والتي تم دفنها على عجل دون إقامة الشعائر الدينية.

كما يسرد هذا الجزء عودة حبش إلى بيروت وتفاعله في الحركة الطلابية بدءاً في العروة الوثقى وتأثّره بقسطنطين زريق، ومن ثم لقاءه الأول بهاني الهندي، انتقالاً إلى كتائب الفداء العربي والعمليّات التي قامت بها عاميّ ١٩٤٩-١٩٥٠، وحتى إقامة «الشباب القومي العربي» التي شكّلت نواة حركة القوميين العرب، أواخر أيام تعليمه الجامعي، بمشاركة وديع حداد وأحمد الخطيب وهاني الهندي وصالح شبل وحامد الجبوري. ومما جاء على لسان الدكتور حبش حول فترة الدراسة في بيروت:

> «عندما عدت إلى بيروت دراستي كانت سطحية. صحيح أنني أنهيت دراستي بعلامات عالية، لكن لم يخطر في بالي أن أحصل على شهادة الدكتوراه حتى أعمل بالحقل. في رأسي كان هناك شيئ واحد هو : العمل من أجل تحرير فلسطين». عندما أنهيتُ تعليمي أحسست أني حققت أماني أمّي. حصلت على الشهادة وقلت: مبروك يا أمي، ابنك الآن دكتور، والآن، سأقوم بما أريد فعله حقاً؛ وفعلاً، هذا ما حدث»[١]

في الجزء الثاني المعنون بـ «١٩٥٢ – ١٩٦١: إنشاء حركة القوميين العرب وترسيخ القومية العربية عند جورج حبش»، يستعرض الكاتب فترة رجوع حبش إلى عمان وما اعتبره بداية الإشراقة لحركة القوميين العرب. ويعرض الكتاب بدايات الحركة، التي موّلها أعضاؤها ذاتياً، ويذكر حبش منهم على سبيل المثال، أحمد الخطيب، الذي كان يحصّل ١٠٠دينار في الشهر يخصص منها ٩٠ ديناراً للحراك. ومما يذكره الكتاب عن هذه الفترة هو ترشّح حبش وثلاثة آخرين من رفاقه لعضوية مجلس النوّاب الأردني باسم «الشباب القومي العربي»، ومع أن أيا منهم لم يحصّل عضوية المجلس، إلّا أنّهم نافسوا بشكل قوي، وحصل حبش على اكثر من ٣٠٠٠ صوت، ما اعتبر في حينه إنجازاً نسبة للظروف المحيطة ولفترة ترشّحه المتأخرة. أما الأهم من ناحية الحركة، فإنّ مجرّد المشاركة في الانتخابات قوّت التنظيم، واعتبرت فرصة للتواصل مع فئات الشعب المختلفة.

وسرد الكاتب في الجزء الثالث وهو بعنوان «١٩٦١ – ١٩٦٦: جورج حبش في ظل القيادة الراسخة لجمال عبد الناصر»، علاقة حركة القوميين العرب بالرئيس المصري جمال عبد الناصر؛ مراحل التقارب والتباعد، والنقاشات حول حل الحركة ودمجها مع الناصرية، والنقاش حول أهمية تعجيل مصر بمحاربة إسرائيل. ومما جاء على لسان الحكيم حول الموضوع:

> «عارضت الاندماج مع الناصرية، لأن معنى الأمر هو حل الحركة وإاانهاء عليها.. مع كل الاحترام والحب لقيادة عبد الناصر، علينا الوقوف بشجاعة أمام نواقص التيار الناصري..»[٢]

وأما بخصوص العلاقة الشخصية مع عبد الناصر، فيقتبس الكتاب مقابلة لحبش مع صحيفة النهار من العام ١٩٩٢:

> «لقد كان شخصاً بسيطاً ومتواضعاً جداً... كان بإمكانك أن تحس صراحته الكبرى... خلال علاقتي معه سألت نفسي من مرة الأخرى، هل انت، جورج حبش، متأثر من عبد الناصر بسبب الهالة الإعلامية حوله أم بسبب من هو فعلاً، لكن اهتممت أن لا يتم أسري في سحر هذه الهالة الإعلامية.»[٣]

واستعرض الكتاب في جزئيه الرابع «في أعقاب النكسة» والخامس «١٩٦٩ – ١٩٧٠: حبش على رأس الجبهة الشعبية – من القومية إلى الماركسية-اللينينية» التحولات الفكرية التي مرّ بها حبش القائد في حركتي القوميين العرب والجبهة الشعبية، بالإضافة للنقاشات التي رافقت تلك الفترة. ومما اقتبسه الكاتب عن الحكيم، في إحدى لقاءاته مع نايف حواتمة مؤسس الجبهة الديمقراطية المنشقة عن الجبهة الشعبية:

> «حتى لو خرجنا من نقطة انطلاق تصنيفك للقيادة (الجبهة) على أنها محافظة ويمينية، وأنك معني بإقامة حزب ماركسي-لينيني في الساحة الفلسطينية – من

١ إيلي جاليا، السيرة السياسيّة لجورج حبش، (تل أبيب: رسلينج، ٢٠١٧)، ص ٤١.

٢ جاليا، السيرة السياسيّة... ، ص ٨٣.

٣ جاليا، السيرة السياسيّة... ، ص ٩٢.

سيقف أمامك؟ لا أحد. هل المبنى الطبقي للجمهور الفلسطيني هو برجوازي؟ إن عدد البرجوازيين في حزبنا قليل جداً، بمقابل الأغلبية الساحقة من العمال والفلاحين... الطريق مفتوحة أمامك ولا يوجد حاجة للانشقاق. احرث الحزب، ازرع فيه وفي مخيمات اللاجئين الوحدات والحسين مبادئك الماركسية اللينينية ونادي بالتغيير الذي تريده»[٤]

ويشير الكاتب، في الجزء السادس للكتاب «١٩٦٩ – ١٩٧٠: رجل الثورة»، أن المنشورات الأولى لحبش ورفاقه لم تتسم بالغزارة الفكريّة، وأن اعتناق اللينينية الماركسية أثرى مكتبة الجبهة وأدى لانفتاحها على أدبيات عالمية مهمة من حيث الكيف والكم. كما يشمل الكتابات اقتباسات من خطابات حبش، نشرت في مجلة الهدف عام ١٩٧٠، فيها استخدام للأدبيات اليسارية في حينه، مثل كتابات ماو تسي تونغ التي استخدمها في مسعاه لتعريف العدو.

إلا ان الكاتب يشكك في فهم حبش الكامل للماركسية – اللينينية أو الماوية وفي تحليله للواقع الاقتصادي الاجتماعي العربي، ويشير إلى أنّ اتّجاهه نحو اليسار حدث بفعل أثر النكسة عليه واستنتاجه بأن القومية العربية لا يمكنها أن تكون عامل حشد قوي للجماهير للنضال ضد الامبريالية والاستعمار وإسرائيل. ومن ناحية أخرى يؤكّد الكاتب بأنه لا يشكك بمصداقية حبش، لكنه يشير إلى أن المحرك الأساس لتحوّلات حبش الفكرية هو تحرير فلسطين والعودة لها وحشد الناس لهذا الهدف. ويتطرق الكاتب لأدبيّات القوميين العرب والجبهة الشعبية في حينه، ويقول إن كتابات حبش ورفاقه لم تشمل نقاشات معمّقة حول نظريّات اليسار التي تحدثوا بها، ولم تتابع مثلاً مستجدات لينين وستالين عليها وغيرهما، وإنما اكتفت باقتباسات عشوائية ومختارة لكتاباتهم.

ويستعرض الجزءان السابع «١٩٧١ – ١٩٨١: الانتقال من الأردن إلى لبنان – تعمّق المنافسة مع فتح»، والثامن «١٩٨٢ – ١٩٨٨: من حرب لبنان وحتى الانتفاضة» مواضيع عدّة، مثل الخلاف بين جورج حبش ووديع حداد، ومحاولة اختطاف طائرة حبش عام ١٩٧٣، وتأثير حرب اكتوبر ١٩٧٣ على القضية الفلسطينية والخلاف مع أنور السادات الذي وصل أشدّه في كامب ديفد، بالإضافة إلى فصول من تعمّق الخلاف بين تيار جورج حبش وتيار ياسر عرفات وإقامة جبهة الرفض عام ١٩٧٤ والحرب الأهلية اللبنانية وحرب إسرائيل على لبنان وتبعاتها.

وينقل الكتاب سرداً لإحدى أعنف الفترات بين حبش وعرفات، بعد أن اختار الأخير أن ترسو سفينته في مصر بعد الخروج من لبنان، ما اعتبر في حينه منح شرعيّة فلسطينية للنظام المصري، بعد سنوات من مقاطعته على أثر توقيعه لاتفاق سلام مع إسرائيل. ومما جاء على لسان حبش على صحيفة الهدف في مطلع كانون الثاني ١٩٨٤:

«من ناحية رسمية عرفات لا يزال يشغل رئاسة اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، إلا أنه لا يمثل تطلعات شعبنا ولا يخدم أهدافه، وأظن أنه لا يستحق أن يكون الرئيس منذ أن تحول إلى «سادات الفلسطينيين».[٥]

ويشير الكاتب أن حبش أعاد تقييم المصطلح بعد سنوات في مقابلات متأخرة، ولم يستخدمه مجدداً لأنه تم إساءة فهمه.

يحاول الكاتب في نهاية الفصل الثامن الإجابة على سؤال التغيير في موقف حبش وموافقته على مضمون إعلان استقلال فلسطين وتبني قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧ الذي تحدث عن دولتين، واحدة عربية وأخرى يهودية؛ أو بتسمية الكاتب انتقاله من «الدوغمائية إلى الواقعية». يشير الكاتب إلى مقالة كتبها حبش عدة أشهر قبل إعلان استقلال فلسطين عام ١٩٨٨ في ذكرى ٤٠ عام على النكبة، مدعياً أن فيها إشارات للتغيير الذي سوف يحصل في المستقبل القريب؛ ويورد الكاتب اقتباسات من حديث حبش عن التغيّرات التي حصلت في إسرائيل وعن قوّتها الاقتصادية، وعن حاجة الفلسطينيين للشرعية الدولية. كما يشير الكاتب إلى إنّه بالرغم من محاولات تفسير حبش لاحقاً للتغيير في الموقف على أنه تغيير تكتيكي يتعامل مع الواقع الجديد، إلا انّه تغيير جدّيّ لم يكن ليقبل به حبش نفسه قبل عشر سنوات. ويشير الكاتب أن التغيير عند حبش لم ينبع بسبب تخليه عن مبادئه بل إنه أصبح يعطي مكانة أكبر للبرغماتية والسياسة العمليّة، وأن منطلقه هو القلق الحقيقي على مستقبل الشعب الفلسطيني.

وأما في الجزئين التاسع والعاشر يتناول الكتاب فترة تراجع الجبهة الشعبية وقائدها جورج حبش بفعل التغيّرات الإقليمية وانتهاء الحرب الباردة ودخول منظمة التحرير في عملية السلام مع إسرائيل، وتأثير ذلك على الجبهة. كما يتطرّق الكتاب إلى مراجعات إضافية لحبش، منها تقديره لإمكانيات النضال بجانب الفلسطينيين في الداخل والعمليّات الاستشهادية في التسعينيات.

٤ جاليا، السيرة السياسيّة... ، ص ١٣٦.

٥ ص ٢٨٧

خاتمة

عادة ما تقوم كتب السيرة بكشف معلومات أو تحليلات جديدة، على المستوى الشخصي أو السياسي للشخص الذي يتناوله الكاتب. هذا الكتاب، لا يجدد من حيث المعلومات، أو التحليل المعمّق، حول الحكيم، إلا أن أهميته بالنسبة للقارئ والباحث العربي، تكمُن في جمعه لمئات المصادر والاقتباسات والإحالات، منها العربية والعبرية والانجليزية والفرنسية حول حبش والجبهة الشعبية خاصة والثورة الفلسطينية عامةً.

على المستوى البحثي، لا يبدو أن هذه المصادر المدرجة كافية لإعطاء صورة شاملة عن أحد أهم القيادات التاريخية للشعب الفلسطيني، ولو أنّ باحثةً أو باحثاً عربياً او أجنبياً كتب هذه السيرة وأجرى مقابلات مع أبناء عصور جورج حبش ولاءمها مع المستندات والخطابات والتقارير الصحفية التي حصل عليها الكاتب، لاستطاع إعطاء صورة وتحليلات جديدة لشخصه ومواقفه. أما من جهة جليا، مؤلف الكتاب، فمن المرجّح أن يرُد أنّ هذا العمل هو بحد ذاته إنجاز لكونه الأول الذي يستعرض السيرة السياسيّة الكاملة لحبش في كتاب واحد.

عند قراءة هذا الكتاب، من الضروري على المستوى السياسي، أن نتناوله بحذر. ليس أن هذا الكتاب يشوّه صورة حبش أو يسرد معلومات كاذبة عنه، بل لأن أي كاتب السير له، عند الكتابة والبحث، خيارات متأثّرة بخلفيّته وقناعاته، وهذه الخيارات تبدأ، بطبيعة الحال، من الصفحة الأولى وحتى الأخيرة للكتاب. ومن هذه الخيارات السياسية، على سبيل المثال، هو الحديث عن تأثير النكبة على الجيل الأوّل للقيادات الفلسطينية، بشكل قد يوحي أن قضيّة النكبة هي قضيّة شخصيّة للقيادات الفلسطينية التي تأثّرت بشكل مباشر بمشاهد التهجير والقتل والترحيل، وليس أنّها مبنيّة على قراءة معمّقة لما حصل لمجمل الشعب الفلسطيني، أو أنّ الثبات والتمسّك بالحقوق الكاملة الفلسطينية مؤسس على العاطفة والمشاعر الغاضبة وليس على العقل والواقعية.